الجامعة وتحدّيات الثورة الرقميَّة:
خمس وعشرون سنة من عمر الإنترنت

الجامعــة وتحدِّيــات الثــورة الرقميَّــة:
خمس وعشــرون ســنة من عمــر الإنترنــت

الأب ميشال جلخ الأنطونيّ

الذكرى السنويَّة الثانية والعشرون لتأسيس الجامعة
عيد سيّدة الزروع - ١٥ أيّار ٢٠١٨

دار نشر الجامعة الأنطونيَّة
جميع الحقوق محفوظة © ٢٠١٨
editions@ua.edu.lb

ISBN 978-9953-552-78-1

الجامعة وتحدِّيات الثورة الرقميَّة:
خمس وعشرون سنة من عمر الإنترنت

مقدِّمة

من يوم دخل الإنترنت الحيِّز العامَّ، عام ١٩٩٣، دخل العالم حقبة جديدة لعلَّ أبرز سماتها الإيقاع الهائل الذي يتغيَّر فيه. فهذه التكنولوجيا التي تسمح بانتقال المعلومات بسرعة ٢٠٠ مليون متر في الثانية، وبمعالجة المعلومات التي يُنتجها نحو أربعة مليارات بشريٍّ بشكل فوريٍّ، غيَّرت إيقاع تطوُّر المعارف والاقتصاد والثقافة، بل قل إنَّها أدخلتنا في تاريخيَّة من نوع جديد. فأصبح الابتكار الماحق (Disruptive Innovation)، ذلك الذي لا يكتفي بأن يتقدَّم على منافسيه، بل ينسِفهم، يغيِّر قوانين اللعبة، ويستولي على السوق لوحده[١]، أصبح قانونَ الانتقاء الطبيعيِّ الجديد (Natural Selection). لذا نجد حاضنة *الستارت أبس* The Family، مثلًا، تتَّخذ شعارًا لها: "البرابرة يهاجمون"[٢]. يهاجمون جميع الميادين، من دون استثناء، من النقل إلى الصحَّة، مرورًا بالتأمين والصناعة والتربية وسواها، ليُغيِّروا شروطها ويُحيلوا معارفنا عنها، وأساليبنا في إدارتها، والوظائف التي تُعنى بها... إلى التقاعد.

فكيف يمكن لهذه الثورة المستمرَّة – وهذا اللااستقرار الدائم – في عوالم المعارف والمهن ومنظومات المعنى ألّا تعنينا كجامعات؟ ألسنا مؤسَّسات إنتاج

---

١ أنظر:

J.-M. Dru, *Disruption: Overturning Conventions and Shaking Up the Marketplace*, NY, Wiley, 1996.

٢ أنظر: http://barbares.thefamily.co/

المعرفة والتأهيل المهنيِّ، والمواقع المتقدِّمة لصوغ رؤى الوجود؟ ماذا يمكن لنا كجامعات بشكل عامٍّ، وكجامعات لبنانيَّة بشكل خاصٍّ، أن نفعل إزاء هذا الواقع؟

ما نعرفه بشكل شبه يقينيٍّ عن الآتي هو أنَّ الوظائف سوف تشهد تقلُّصًا دراماتيكيًّا بفعل ما يُسمَّى العلمتة (Computerization)، وأنَّ نسبة يقدِّرها البعض بـ٤٧٪ من المهن التي نعرفها سوف تختفي[٣]، ممّا يعني أنَّ طلب أسواق العمل كما نتخيَّله عندما نُنشئ هذا أو ذاك من اختصاصاتنا يتبدَّل بوتيرة مقلقة.

ما نعرفه – نحن الجامعات – بشكل شبه يقينيٍّ أيضًا، أنَّ مواردنا البشريَّة الأكاديميَّة بخطر، لأنَّ العمل في الشركات أربح وأجدى للباحثين الناجحين. يجري الحديث عالميًّا اليوم عن نزيف الأدمغة من الجامعات إلى عالم الأعمال ولا سيَّما الصناعات الرقميَّة، وعن خطر حقيقيٍّ يتهدَّد الجامعات على هذا الصعيد[٤].

ما نعرفه يقينًا، كذلك، أنَّ تكنولوجيّات الذكاء الاصطناعيِّ والتطوير الدماغيِّ والتعديل الجينيِّ والنانوفيزياء وسواها ستطرح علينا إشكاليّات أخلاقيَّة وقانونيَّة واجتماعيَّة لا نملك أن نتصوَّرها. فهي تسبق القانون والأخلاقيّات إلى عراءات مجهولة، نصل إليها دائمًا متأخِّرين فنضطرُّ إلى الاعتراف بواقع لا يحتاج اعترافنا أصلًا.

---

[٣] أنظر:

C. B. Frey, M. A. Osborne, "The Future of Employment: How Susceptible Are Jobs to Computerisation?," in *Technological Forecasting and Social Change*, vol. 114, January 2017, pp. 254–280. https://www.oxfordmartin.ox.ac.uk/downloads/academic/The_Future_of_Employment.pdf

[٤] أنظر:

C. Villani, M. Schoenauer, Y. Bonnet, C. Berthet, A.-C. Cornut, F. Levin, B. Rondepierre, « Donner un sens à l'intelligence artificielle : Pour une stratégie nationale et européenne » (rapport commandé par le premier ministre Edouard Philippe), mars 2018. http://www.ladocumentationfrancaise.fr/rapports-publics/184000159/index.shtml

لا مفرَّ لنا إذًا من التفكير في كيفيَّة تأطير الثورة التكنولوجيَّة ضمن تطوُّر إبستمولوجيٍّ ومجتمعيٍّ وأخلاقيٍّ واسع.

وإذا كانت هذه المسألة تعني كلَّ الجامعات من دون استثناء، فإنَّها تعنينا في الجامعة الأنطونيَّة بنوع خاصّ. فجامعتنا نمت وتوسَّعت حول نواة أكاديميَّة صلبة هي كلِّيَّة هندسة المعلومات والاتِّصالات، والتي تُعدُّ اليوم، من حيث عدد طلّابها، أكبر وحدة أكاديميَّة موقوفة لهذا الاختصاص في لبنان. وهي تشكِّل، بحكم أقدميَّتها وطبيعة مجالها، وبهمَّة باحثيها وأساتذتها، قاطرة الجامعة في مجالات البحث والتطوير، وكاسحة ألغامها في عوالم التكنولوجيا الرقميَّة والذكاء الاصطناعيّ.

لكنَّ مهندسي المعلومات، هؤلاء الذين قيل عنهم إنَّهم معلِّمو عالمنا برمَّته، يحتاجون الجامعة بمثل ما تحتاجهم. يحتاجون أن نواكب التطويرات التقنيَّة التي يعملون عليها بتطوُّر فكريٍّ من الطراز والقوَّة نفسيهما، لئلّا تتشلَّع الثقافة بين سرعتهم الفائقة وبطء تأقلم القطاعات المعرفيَّة الأخرى، والمجتمع بشكل عامٍّ، مع التحوُّلات التي تترتَّب على الثورات التكنولوجيَّة المتعاقبة[٥].

لذا لا بدَّ من التفكير بما تفعله التكنولوجيا بعالمنا وبالجامعات والمجتمعات، تمهيدًا للتفكير بما يجدر بنا أن نفعله نحن بالتكنولوجيا.

١. التكنوفوبيا ومكامن وجاهتها

غالبًا ما تُرمى التحليلات الناقدة للتطوُّر التكنولوجيِّ، أو المحذِّرة من الارتماء غير النقديِّ في ما يقدِّمه لنا، بتهمة التكنوفوبيا، مع ما تفترضه هذه التهمة عند

---

٥ أنظر:

J.-F. Lyotard, *La condition postmoderne : Un rapport sur le savoir*, Paris, Éditions de minuit, « Critique », 1979.

مطلقيها من معاني الظلاميَّة والتخلُّف والامتثاليَّة ومعاداة الحرِّيَّة[٦]. فأين يتموقع طرحنا ضمن مروحة الطروحات الممتدَّة بين المخاوف المشروعة – بل الضروريَّة – والفوبيا المكبِّلة؟

١.١. الخوف على البشريَّة

تعيش البشريَّة منذ مطلع القرن العشرين هواجس خوفها من نفسها على نفسها، خوف ليس دافعه الأساسيُّ سوى تضخُّم قدراتها التكنولوجيَّة التي جعلتها قادرة على إفناء نفسها. وإذا كانت أسلحة الدمار الشامل عنوان هذا الإفناء الذاتيِّ الصاعق، فإنَّ الخطر البيئيَّ من جهة، ومخاطر الذكاء الاصطناعيِّ من جهة ثانية، عنوانان إضافيّان ليسا أقلَّ دراماتيكيَّة، وإن كانا لا يوحيان بالهلع المباغت الذي توحي به القنبلة النوويَّة. ماذا ينبغي أن نفعل بهذا الخوف، وكيف نجعل منه منهجًا معرفيًّا وسلوكيًّا يحمي الأجيال المقبلة من مخاطر مغامراتنا التكنولوجيَّة؟

هناك مَن أجاب عن هذا السؤال مقترحًا أخلاقيّات جديدة تقضي بأن نتصرَّف بحيث تكون نتائج أعمالنا متوافقة مع استمرار حياة إنسانيَّة، إنسانيَّة بحقٍّ، على الأرض، فلا تدمِّر شروط إمكان هذه الحياة. على كلٍّ منّا إذًا أن يُدرج في خياراته الحاضرة سلامة الإنسان في المستقبل كهدف ثانويٍّ لإرادته[٧].

---

٦ أنظر:

J.-P. Séris, *La Technique*, Paris, PUF, « Quadrige », 2013.

٧ أنظر:

H. Jonas, *Le principe responsabilité : Une éthique pour la civilisation technologique* (1979), Paris, Flammarion, 2013.

٢.١. الخوف على العلم

إلّا أنَّ الخوف ليس خوفًا من نتائج التطوُّر العلميِّ وحسب، بل هو خوف على العلم نفسه أيضًا. يعتبر إتيان كلان أنَّ العلمويَّة والتكنولوجيا يهدِّدان العلم، الأُولى إذ تنسب له طموحات ووعودًا لا يستطيع أن يفي بها، أو ليست من ضمن مهامِّه، كتحقيق السلام العالميِّ أو الإجابة على أسئلة الماوراء، والثانية تكسف سؤال الحقيقة لصالح سؤال المنفعة. ولقد أصبحت التكنولوجيا من القوَّة والضرورة في عالمنا بحيث يصعب تخيُّل العلم منفصلًا عنها. فأبرز الجهات المموِّلة للبحث العلميِّ هي وزارات الدفاع وعمالقة الصناعة والإنترنت، وعندها البحث مرتبط بالمنافسة والربح التجاريَّين، أو بالسلطة والنفوذ، ولا مكان فعليًّا للبحث العلميِّ الحرّ. في حين أنَّ العلم لا يزدهر إلّا منعتقًا من طلب المنفعة التجاريَّة المباشَرة، يقول كلان، مذكِّرًا أنَّنا لم نخترع الكهرباء فيما كنّا نطوِّر الشموع. من جهة ثانية، إنَّ نجاحات التكنولوجيا الحاليَّة مبنيَّة على إنجازات علميَّة سابقة، وما لم نستثمر مجدَّدًا في البحث عن الحقيقة وفي دعم العلوم لذاتها، لا لفوائدها التجاريَّة، فإنَّ الدفع العلميَّ الذي تستند إليه التكنولوجيا سينضب، ممّا يعني نهاية التكنولوجيا نفسها[٨].

٣.١. الخوف على الحرِّيَّة والخصوصيَّة

لا حاجة لكثير من التحليل في هذا السياق. فها فايسبوك يقرِّر، بالنيابة عنّا، من هم أصدقاؤنا، فيستبعد عن شريط أخبارنا الفايسبوكيَّة "أصدقاء" لنا لا "يتفاعلون" معنا بشكل دائم. يتَّخذ هذا الإجراء معنى خاصًّا في ضوء ما عُرف مؤخَّرًا بفضيحة Cambridge Analytica، الشركة التي حصلت من فايسبوك على

---

[٨] أنظر كتابه:

E. Klein, *Galilée et les Indiens : Allons-nous liquider la science ?*, Paris, Flammarion, 2008.

المعلومات الشخصيَّة الخاصَّة بنحو ٨٧ مليون شخص.

هذه الفضيحة ليست سابقة في تاريخ عملاق التواصل الاجتماعيِّ، ولن تكون الأخيرة: كان فايسبوك لا يزال فتيًّا، عام ٢٠٠٦، عندما أطلق ما نعرفه بالنيوزفيد (Newsfeed)، يومها انتفض أكثر من مليون مشترك من أصل مشتركيه الستَّة ملايين، مستهجنين أن يعرف أصدقاؤهم بكلِّ ما يقومون به على الموقع، معتبرين ذلك انتهاكًا لخصوصيَّتهم. لكنَّ مؤسِّس فايسبوك قال لهم يومها أن يهدؤوا، وقد هدؤوا بالفعل، وأصبح النيوزفيد أبرز نجاحات مواقع التواصل الاجتماعيّ. ومن منّا قد ينسى فضيحة تجارب التحكُّم بالمزاج (Mood Manipulation Experiment)، العائدة للعام ٢٠١٤، وتفاصيلها أنَّ أدام كريمر، أحد موظَّفي فايسبوك الكبار، قام بتعديل النيوزفيد الخاصِّ بنصف مليون عضو على الموقع لدراسة تأثير الأخبار السلبيَّة أو الإيجابيَّة على مزاجهم، وكيفيَّة انتشار الانفعالات المترتِّبة عليها عبر الشبكة، وقد قام بنشر الدراسة في مجلَّة علميَّة[٩]! بالطبع، اعتذر بعد ذاك على ما اعتُبر إخلالًا بأخلاقيّات البحث العلميِّ، ولكن من منّا لا يؤكِّد أنَّ تجارب من هذا النوع ما تزال تحصل؟

باختصار، تاريخ الخصوصيَّة على مواقع التواصل الاجتماعيِّ تاريخ انتهاكات صغيرة، متتالية، تُثير بعض الزوابع ضمن فنجان فايسبوك نفسه، ثمَّ تنطفئ، لتخرج المجتمعات من بعدها وقد ضعُفت مناعتها درجة إضافيَّة إزاء انتهاك معلوماتها الشخصيَّة، وأضحت أكثر قبولًا لفكرة أنَّها تحت المراقبة والدراسة و... التحكُّم.

---

٩ أنظر:

A. D. I. Kramer, J. E. Guillory, J. T. Hancock, "Experimental Evidence of Massive-Scale Emotional Contagion Through Social Networks," in *Proceedings of the National Academy of Sciences*, vol. 111, nº 24, June 2014, pp. 8788–8790.

٤.١. الخوف على الجامعة فكرة وقِيمًا وموارد

في ما يخصُّ أثر الثورات الرقميَّة المتلاحقة والتغيُّرات الاقتصاديَّة والقِيميَّة المرتبطة بها على الجامعة، دقَّ الأوروبِّيُّون والأميركيُّون ناقوس الخطر منذ ما يقارب العقدين. فقد نبَّه اختصاصيُّون كثر إلى أنَّ أفضل الطلّاب في دول أوروبّا الغربيَّة وأميركا الشماليَّة واليابان ما عادوا يرغبون في دراسة العلوم[١٠]، معظمهم يُؤثر إدارة الأعمال، لأنَّها الطريق الأقصر برأيهم إلى النجاح والثروة. وها الخطر يبلغ الجسم التعليميَّ، إذ يُتوقَّع أن تشهد الهيئات الأكاديميَّة ذات الاختصاصات المتَّصلة بالمعلوماتيَّة ومتفرِّعاتها نزيف أدمغة حادًّا لصالح الشركات. لذا، اقترح فيلاني في تقريره عن وضع الأبحاث في الذكاء الاصطناعيِّ في فرنسا، أن تُضاعف رواتب الأساتذة المنخرطين في هذا الاختصاص تلافيًا لفقدانهم لصالح القطاع الصناعيّ[١١].

إلّا أنَّ الموضوع ليس ماديًّا وحسب، بل هو في الوقت عينه مؤشِّر إلى تبدُّل سلَّم القِيم، وتراجع المعرفة كقيمة أمام المنفعة. إنَّه تحوُّل يضرب فكرة الجامعة في صميمها. لكنَّ الجامعات ليست بريئة منه، فلقد استدخلت، منذ فترة، النمط التجاريَّ، نمطًا لن تستطيع أن تنافس فيه التجّار الأصيلين، لذا تراها مهدَّدة بأن تخسر نفسها ولا تربح التجارة.

---

[١٠] أنظر، على سبيل المثال:

E. Seymour, N. M. Hewitt, *Talking About Leaving: Why Undergraduates Leave the Sciences*, Boulder, Westview Press, 1997.

« Les jeunes Japonais boudent les filières scientifiques », *Courrier international*, n° 168, 20/1/1994.

B. Convert, « La "désaffection" pour les études scientifiques », *Revue française de sociologie*, vol. 44, n° 3, 2003, pp. 449–467.

[١١] أنظر تقرير سيدريك فيلاني، مرجع سابق.

علينا التعامل مع عالم من الأجدى فيه أن تصمِّم تطبيقًا إلكترونيًّا يسمح لمستخدميه بإيجاد تاكسي من أن توفِّق بين الفيزياء الكمِّيَّة ونظريَّة النسبيَّة، لذا تقع على كاهلك المهمَّة شبه المستحيلة القاضية بإقناع طلّابك أن يؤثروا التمثُّل بأينشتاين على الاقتداء بكالانيك!

٢. نحو تكنوفيليا نقديَّة

لا تعني هذ الملاحظات الدعوة إلى طلاق التكنولوجيا أو وقف نموِّها، فالأعمال البحثيَّة الناقدة للإنترنت ترانا نقرأها بفضل الإنترنت، وحتّى غضبنا من فايسبوك لا يكون ظاهرة شاملة بما يكفي ما لم يحتلَّ مكانًا على فايسبوك نفسه! لا مجال للخروج من العصر، ولا فائدة تُرتجى من ذلك. المطلوب أن نبذل الجهد الضروريَّ لمواكبة التطوُّر مواكبة نقديَّة تسمح ببناء مجتمعات تتبنّى الابتكار التكنولوجيَّ وتتفاعل معه بذكاء وتبصُّر. لذا نحن دعاة تكنوفيليا نقديَّة تسمح بتحويل مخاطر التكنولوجيا إلى فرص.

١.٢. عودة الجامعة الجامعة

بالإمكان وضع أبرز ما نُشر عن التعليم العالي خلال العقد الأخير من القرن العشرين والعقد الأوَّل من القرن الحادي والعشرين تحت عنوان أبوكاليبتيكيٍّ من نوع "نهاية الجامعة" أو "أزمة الجامعة". من الصعب اختصار هذه المنشورات، ولكنَّها بمعظمها تنعي الجامعة بمعناها ووظائفها التقليديَّة، منتقدةً اجتياح المنطق التجاريِّ للتعليم العالي على حساب الجودة، وتفريط الأخير بالإنسانيّات والثقافة لصالح الإعداد المهنيِّ الضيِّق والميادين ذات الربحيَّة المادِّيَّة العالية. ومن الشكاوى التي تعود بكثافة في هذه الأدبيّات فقدان الجامعة لقدرتها على توحيد المعارف، وهي القدرة التي على أساسها سُمِّيت بالـ"جامعة". لقد تبلقنت المعرفة فتحوَّلت

مؤسَّسات التعليم العالي إلى كونفدراليّات من الاختصاصات، لا يجمع بينها سوى جسور سطحيَّة، لأنَّ كلَّ محاولة جمع أعمق من ذلك توسم بالأيديولوجيَّة، بعدما أفل نجم الماركسيَّة، والبنيانيَّة، والفرويديَّة، وسواها من المنظومات التفسيريَّة الكلّيانيَّة أو العابرة للاختصاصات[١٢].

من "حسنات" الأخطار التي تنتج عن الثورات التكنولوجيَّة، والتي تكلَّمنا عنها أعلاه، أنَّها إنَّما تؤكِّد الحاجة إلى عودة الجامعة الجامعة. جامعة لا تكتفي بأن تُنتج معارف مفتَّتة ومنتجات قابلة للتسويق، بل تُخضع ما تُنتجه علومها الصلبة لنقديَّة علومها الإنسانيَّة، وتُدير الكتلتين ضمن مفهوم واسع للإنسان والمجتمع كما نريدهما أن يكونا.

والجدير ذكره أنَّ معظم الدراسات التي تتحدَّث عمّا يجب أن تكون عليه مواكبة التعليم العالي لآثار الثورات الرقميَّة تشدِّد على ضرورة تعليم الطلّاب ما لا يمكن للذكاء الاصطناعيِّ أن يحلَّ مكانهم فيه، أي الابتكار والتحليل والنقد واتِّخاذ القرار والتقييم الأخلاقيِّ، ممّا يفترض إعادة اعتبار جدِّيَّة لموقع الإنسانيّات في المنظومة الجامعيَّة[١٣]. وفي ذلك، إنَّما تلتقي هذه الدراسات مع ما ذهب إليه قداسة البابا فرنسيس في الدستور الرسوليِّ "فرح الحقيقة" الذي نُشر في ٢٩ كانون الثاني من العام الحاليِّ، وفيه يشدِّد على دور الفلسفة واللاهوت المسيحيَّين في الدفع إلى ثورة ثقافيَّة من أبرز عناوينها هدم الجدران بين الميادين كيما تتلاقح في ما بينها في ضوء الوحي، وهدم الجدران العازلة بين المؤسَّسات، لأنَّ علينا أن نفكِّر في مشروع

---

١٢ أنظر:

J.-P. Pinel, « Malaise dans la transmission : l'Université au défi des mutations culturelles contemporaines », *Connexions*, vol. 78, nº 2, 2002, pp. 11–30.

١٣ أنظر:

E. Brynjolfsson, A. McAfee, *The Second Machine Age: Work, Progress, and Prosperity in a Time of Brilliant Technologies*, NY, W.W. Norton & Company, 2016.

مشترك ولخدمة عالم واحد.

٢.٢. دورنا، هنا، الآن

قد يبدو نقد التكنولوجيا ترفًا لا حقَّ لنا به الآن في لبنان، ونحن ما زلنا نحلم بإنترنت سريع وبإدارة معلمتة يخفِّفان من معاناة اللبنانيِّين ويخفِّضان نسب الهدر والرشوة. كما قد يبدو جحودًا أو تجاهلًا للتحسينات الجمَّة التي أدخلتها التكنولوجيا إلى الجامعة نفسها، ومن أكثر من زاوية. فها نحن نعالج ملفّات آلاف الطلّاب، ومئات الأساتذة والمقرَّرات، والتقييم المهنيَّ، والامتحانات والخدمات والتسويق الاستراتيجيَّ وسواها... بواسطة البرمجيّات. فمن منّا يتخيَّل العمل الجامعيَّ اليوم من دون Oracle, PIMS, Scholar, Scopus, Moodle وسواها؟ تُضاف إليها مئات البرمجيّات الخاصَّة بكلِّ اختصاص، لا مجال هنا لتعدادها. يستحيل إنكار كلِّ ذلك، لكنَّ الاعتراف لا يعفينا من وظائفنا تجاه المجتمع والثقافة وأجيال الغد.

وهنا أقترح ألّا نكتفي من الآن فصاعدًا باستيراد التقنيّات سلبيًّا أو الاكتفاء من المشاركة في إنتاجها بإسهامات موضعيَّة وحسب، أقترح أن نعمل على تبيئة الثورة التكنولوجيَّة تبيئة نقديَّة وعلى مساعدة مجتمعنا على استدخالها استدخالًا منتِجًا وإيجابيًّا، وعلى دراسة آثارها الاقتصاديَّة والثقافيَّة والاجتماعيَّة دراسة استشرافيَّة تسمح بالتخطيط للمستقبل تخطيطًا خلّاقًا وواقعيًّا في آن.

لذا لا بدَّ من مدِّ الجسور بين الهندسيّات والإنسانيّات. وهو تحدٍّ قرَّرت الجامعة الأنطونيَّة النهوض به، لذا تُطلق قريبًا كلِّيَّة فنون وعلوم إنسانيَّة يكون نشاطها البحثيُّ متمحورًا، قبل كلِّ شيء، حول القضايا والإشكاليّات التي تطرَّقت إليها آنفًا. وإذا كانت مأساة الإنسانيّات الأكاديميَّة في بلداننا أنَّ خيارات الباحثين فيها تقضي إمّا بأن ينشروا عالميًّا من دون أثر في مجتمعاتهم، أو أن ينهمُّوا بشؤون

مجتمعهم، فلا يكون لأبحاثهم أثر على المستوى العالميِّ ولا قيمة فعليَّة في موازين التقييم والترقية الجامعيَّين[١٤]، فإنَّ الجامعة الأنطونيَّة قد حسمت أمرها على هذا الصعيد من يوم اعتمدت "السياقيَّة" (Contextualization) سمة أساسيَّة للبحث فيها. ولنا في الدور الريادي الذي يلعبه مركز البحث في التقاليد الموسيقيَّة – بحثيًّا وثقافيًّا، محلِّيًّا وعالميًّا – أبلغ دليل على نجاح هذا الخيار الذي أدرجته الجامعة الأنطونيَّة في رسالتها.

ولا تحيد الهندسيّات عن هذا التوجُّه. تريد الأنطونيَّة للهندسيّات فيها أن تكوِّن موقعًا تكنولوجيًّا متقدِّمًا في خدمة الإنسان، وخدمة الحرِّيَّة، وخدمة الخصوصيَّة، وخدمة الفنون، وخدمة الثقافة وكلِّ ما يُخشى من التكنولوجيا العمياء عليه. وطموحنا أن نُسهم في ورشة وطنيَّة حول هذه الموضوعات، ورشة نأمل أن تُفتح قريبًا.

٣.٢. التكنولوجيا واليوطوبيا

أجل، ليس محكومًا على تطوُّرنا أن يسير إلى السيناريوهات السوداء التي ترسمها السينما والأدب عن مستقبل البشريَّة تحت نير التكنولوجيا. وليس التفاؤل بغد أفضل موقفًا ساذجًا بالضرورة. نحن دعاة تفاؤل نابع من براءة الإنجيل، قوامه الإيمان بأنَّ في البشر ما يكفي من الطيبة للارتفاع بالذكاء إلى مستوى الحكمة، ولوضع الحكمة في خدمة المحبَّة.

وهنا، اسمحوا لي أن أقتبس كتابًا قديمًا نسبيًّا، عائدًا إلى النصف الأوَّل من

---

[١٤] أنظر:

S. Hanafi, "University Systems in the Arab East: Publish Globally and Perish Locally vs Publish Locally and Perish Globally," in *Current Sociology*, vol. 59, issue 3, 2011, pp. 291–309.

القرن الماضي، أعني كتاب **منبعا الأخلاق والدين** لهنري برغسون، الذي صدر عام ١٩٣٢، والذي أعتبره ما يزال صالحًا للتأمُّل وأخذ العبر منه اليوم. يقول برغسون في ختام كتابه: "البشرية تئنُّ، نصف مسحولة تحت ثقل التقدُّم الذي أنجزته. وهي لا تعرف بما يكفي أنَّ مستقبلها مرهون بها. لها أن تقرِّر أوَّلًا ما إذا كانت تريد أن تستمرَّ في الحياة. ولها أن تتساءل بعد ذاك ما إذا كانت تريد أن تحيا وحسب، أو أن تبذل الجهد الضروريَّ لكي تتحقَّق، على كوكبنا المعاند، وظيفة الكون الجوهريَّة بوصفه ماكينة لإنتاج الآلهة"[١٥].

نحن المدعوِّين لنكون كاملين كما أبينا الذي في السماوات، وإلى بناء الملكوت بدءًا من هنا، مدعوُّون لا إلى نبذ التطوُّر، بل إلى وضعه في خدمة الإنسان، كلِّ إنسان وكلِّ الإنسان، بحيث تسهم تقنيّاتنا في استئصال الجوع والعوز والعنف والجهل، وغيرها ممّا يحني ظهور مليارات البشر باتِّجاه الأرض، كيما يُتاح لنا أن ننظر، معًا، إلى الغد وإلى فوق.

لهذه الكلمات وقع اليوطوبيا، لكن ما أضيق التربية وأتعسها مهنة لولا الإيمان بقدرة الإنسان على بناء عالم أفضل.

خاتمة

إذ نفاخر بتعليم طلّابنا الريادة، والمبادرة، والقيادة، والتفكير التصميميَّ (Design Thinking)، وعيننا على غوغل وأوبر وأمازون وسواها من أيقونات الابتكار الماحق، علينا أن نسأل أنفسنا عن أثر هذا النمط على الحضارة بالمعنى الواسع، وأن نتذكَّر أنَّنا والأكثريَّة الساحقة من الطلّاب – والبشر بشكل عامٍّ –

15 H. Bergson, *Les deux sources de la morale et de la religion* (1932), Paris, Félix Alcan, 1937, p. 343.

سنعيش خارج *السيليكون فالي*، أي في السدوم الثقافيَّة الكبرى التي ستُبقيها لنا التكنولوجيا إن هي تُركت على غاربها مقودةً بالجشع التجاريِّ ونَزق التسلُّط، إذ من شأنها على المدى البعيد، في هذه الحال، أن تطمس كلَّ مكامن الإبداع في الحضارة البشريَّة لصالح السوائد الإحصائيَّة[١٦]، وأن تحوِّل الأغلبيَّة الساحقة من البشر إلى أدوات في أيدي قلَّة منهم.

تتطوَّر التقنيّات من حولنا بسرعة هائلة تمنع الهضم الحضاريَّ، وتجعل الأفراد والمجتمعات بحالة من السمنة المعلوماتيَّة (Infobesity)، وفي الوقت نفسه، في حالة من القحط المعرفيّ. تُنتج الكثير من المعطيات (Data)، لكنَّها تعهد بتحليلها إلى أنظمة تستبعد بشكل منهجيٍّ كلَّ استثناء، وبالتالي كلَّ تفكير بل كلَّ معرفة.

المطلوب أن نواكب التطوُّر التكنولوجيَّ بتطوُّر أخلاقيٍّ-ثقافيٍّ يوقف دوّامة اليأس التي تجتاح المجتمعات تحت نير الثورة الرقميَّة-الاقتصاديَّة[١٧]. أجل، يصبح كلُّ شيء من حولنا ذكيًّا – الهواتف، التلفازات، المكيِّفات، السيّارات...، ولو بالمعنى الأضيق لمفهوم الذكاء – إلّا أنَّنا مهدَّدون بأن نصبح، يومًا بعد يوم، أقلَّ استعدادًا للتفكير. ذاك هو، باختصار، الوجه الآخر من عملة التطوُّر الرقميِّ.

يبقى أن نقوم بالجهد المطلوب وبالتفكير اللازم في ما يدور حولنا قبل فوات الأوان حتّى تبقى التكنولوجيا أمينة على رسالتها الأولى التي وُلدت من أجلها ألا وهي نموُّ الانسان وتسهيل ظروف حياته اليوميَّة وخدمة طموحاته وتطلُّعاته الأسمى.

---

١٦ أنظر، مثلًا، حول أثر غوغل على اللغات:

F. Kaplan, "Linguistic Capitalism and Algorithmic Mediation," in *Représentations*, vol. 127, nº 1, 2014, pp. 57–63.

١٧ أنظر:

B. Stiegler, *Dans la disruption, comment ne pas devenir fou ?*, Paris, Les liens qui libèrent, 2016.

ها قد وضعت الجامعة الأنطونيَّة يدها على المحراث، ونحن موقنون أنَّ أيادي كثيرة لن تلبث أن تنضمَّ إلينا، لنبني معًا عالمًا ليس أكثر ذكاء وإنتاجيَّة وحسب، بل أكثر حكمة ورحمة ومحبَّة.